حين كان التاريخ يجلس بيننا.. في ذكرى المرجع الديني الشيخ محمد مهدي الخالصي - علي كاظم التميمي

حين كان التاريخ يجلس بيننا.. في ذكرى المرجع الديني الشيخ محمد مهدي الخالصي

بقلم: علي كاظم التميمي

لم يكن الحديث مع الشيخ محمد مهدي الخالصي حديثًا مع رجلٍ يروي تاريخًا قرأه في الكتب؛ فكثيرٌ من ذلك التاريخ مرّ أمام عينيه، وبعضه عاشه بنفسه، وبعضه الآخر وصل إليه من أبيه ورجالٍ كانوا في قلب أحداثه.

وحين كان يستعيد أسماء الرجال، والمنافي، والسجون، والانقلابات، ومواقف العلماء، لم تكن المسافة بين الماضي والحاضر كبيرة. كان التاريخ، في مجلسه، يبدو قريبًا؛ له أسماء ووجوه وأصوات، وله أثمان دفعها أناس عرفهم، ودفع هو نصيبًا منها أيضًا.

لهذا، فإن مرور عام على رحيل المرجع الديني الشيخ محمد مهدي الخالصي (رضوان الله تعالى عليه) لا يستدعي كتابة سيرةٍ أخرى تبدأ بميلاده وتنتهي بوفاته؛ فتلك التواريخ تستطيع كتب التراجم أن تحفظها. أما ما يصعب تعويضه فهو الشاهد نفسه؛ الرجل الذي حمل في ذاكرته شيئًا من قرن كامل، وعاش امتداد مدرسةٍ بدأت مقاومةً للاستعمار، ثم عبرت السجون والمنافي والحروب والاحتلالات، وظلت تسأل السؤال نفسه: أين يكون موقف العالم حين تتعرض أمته ووطنه للامتحان؟

كان الشيخ واحدًا من أولئك الذين يصعب فصل سيرتهم الشخصية عن تاريخ العراق؛ لأن أحداث هذا البلد لم تمر بمحاذاته، بل مرّ كثيرٌ منها في حياته وجسده وبيته.

ذاكرةٌ لم تبدأ من الكتب

ربما كان المنفى أول ما استقبل الشيخ قبل أن يعرف معنى المنفى نفسه. فقد وُلد سنة 1938م في مدينة تويسركان الإيرانية، بعيدًا عن وطن أسرته، ولم يكن وجوده هناك اختيارًا عابرًا، بل امتدادًا للملاحقات التي تعرض لها آل الخالصي بسبب مواقفهم السياسية والجهادية.

كان نجل الإمام المجدد الشيخ محمد الخالصي، وحفيد الإمام الشيخ محمد مهدي الخالصي الكبير، أحد أبرز قادة الجهاد والمقاومة ضد الاحتلال البريطاني للعراق. وهكذا لم يكن تاريخ الجهاد بالنسبة إليه فصلًا يقرؤه في كتاب؛ كان تاريخ البيت الذي نشأ فيه، والأسماء التي سمعها منذ طفولته، والرجال الذين عرف بعضهم، والوقائع التي تلقى تفاصيلها ممن صنعوها أو شهدوها.

فتح عينيه على بيتٍ لم يكن العلم فيه منفصلًا عن هموم الأمة، ولم تكن المرجعية موقعًا اجتماعيًا أو عنوانًا موروثًا، بل مسؤوليةً قد يكون ثمنها السجن أو المنفى أو الرصاص.

نشأ في كنف والده، وتلقى عنه وعن علماء عصره العلوم الدينية والفكرية، ثم عاد إلى العراق ودرس العلوم الدينية والحقوقية. غير أن الحياة لم تمهله طويلًا ليبقى بين الدرس والكتاب؛ فقد كان العراق نفسه يدخل مرحلةً وراء أخرى من الاضطراب، وكان الشيخ يجد نفسه في قلب كثير منها.

حين يصبح للموقف ثمن

لم يكن الشيخ محمد مهدي الخالصي ممن يفصلون بين الفكرة وثمنها.

ومن المحطات التي تكشف جانبًا مبكرًا من شخصيته ما جرى له أثناء خدمته ضابطًا في الجيش العراقي، حين رفض أن يكون جزءًا من قتال أبناء الشعب العراقي في شمال البلاد، فبلغ ثمن ذلك الموقف حدَّ الحكم عليه بالإعدام.

وقد تكون هذه الحادثة مفتاحًا لفهم جانب كبير من سيرته اللاحقة؛ فالموقف عنده لم يكن بيانًا يصدر بعد انقضاء الخطر، بل مسؤوليةً قد يدفع صاحبها ثمنها وهو لا يعرف كيف ستكون النهاية.

وتكرر ذلك بأشكال مختلفة. عارض السياسات التي رأى فيها مساسًا بوحدة المجتمع العراقي، ورفض عمليات التسفير الجائرة، وأول من ناصر الثورة الإسلامية في إيران، ثم وقف ضد الحرب العراقية الإيرانية وما أحدثته من نزيف بين شعبين مسلمين. ورفض احتلال الكويت، كما رفض أن يتحول الاعتراض على السلطة العراقية إلى تبرير للحصار الذي سحق حياة الناس.

كان يفرّق دائمًا بين الدولة والسلطة، وبين الشعب والحاكم، وبين الاعتراض السياسي وبين تحويل أوطان المسلمين إلى ساحات للحروب والتدخلات الأجنبية.

ولهذه المواقف أثمانها أيضًا؛ ملاحقات، ومنافٍ، ومحاولات اغتيال، وجراح بقي بعضها شاهدًا في جسده إلى أواخر حياته.

كان التاريخ الذي يتحدث عنه قد ترك أثره عليه بالفعل.

عراقٌ لا يراه من نافذة الطائفة

ثم جاء الاحتلال الأمريكي للعراق سنة 2003م، ودخل البلد واحدًا من أخطر منعطفاته الحديثة.

هنا ظهر بوضوح ميزان آخر من موازين الشيخ: العراق لا يمكن أن يُقرأ من نافذة الطائفة.

لم يكن يقبل أن يكون الإنسان مع هذا الطرف لأنه شيعي، أو مع ذاك لأنه سني، ولا أن تتحول المذاهب إلى حدود سياسية داخل الوطن الواحد. كان السؤال عنده أبسط وأصعب في آنٍ واحد: من يريد للعراق أن يكون حرًا مستقلًا موحدًا؟ ومن يقبل أن يكون القرار العراقي تابعًا لقوة أجنبية؟

ومن هذا الميزان جاء رفضه للاحتلال منذ البداية.

رأى أن الاحتلال، مهما غيّر أسماءه وعناوينه، لا يمكن أن يكون طريقًا إلى بناء وطن مستقل، وأن العراقيين لا ينبغي أن يستبدلوا استبداد الداخل بوصاية الخارج.

وحين انفجرت الفتنة الطائفية، بقي خطابه متمسكًا بوحدة المسلمين والعراقيين، رافضًا تحويل الصراع السياسي إلى اقتتال مذهبي.

ولم يكن هذا موقفًا طارئًا فرضته أحداث ما بعد 2003م، بل امتدادًا لمدرسة كاملة جعلت الوحدة الإسلامية والاستقلال الوطني ورفض الهيمنة الأجنبية من ثوابتها الكبرى.

التاريخ حين يجلس في المجلس

غير أن الشيخ الذي عرفته ساحات السياسة والمواقف لم يكن بعيدًا عن الكتاب والدرس.

ولعلّ من عرف مجالسه يدرك أن الفصل بين «العالم» و«السياسي» في شخصيته لم يكن سهلًا. كانت الفكرة الفقهية تستدعي واقعة تاريخية، والواقعة تقوده إلى رجل عرفه، واسم الرجل يفتح بابًا إلى موقف سياسي، ثم يعود الحديث بعد ذلك إلى كتاب أو مسألة علمية.

وكانت لديه ذاكرةٌ غنية بالأسماء والتواريخ والوقائع؛ لا لأنها محفوظات فحسب، بل لأن كثيرًا منها كان جزءًا من حياته.

لقد عاش زمنًا طويلًا بما يكفي ليرى العراق ينتقل بين عهود وأنظمة متعاقبة؛ رأى الملكية والجمهوريات والانقلابات والحروب والحصار والاحتلال، وشهد صعود رجال وسقوط آخرين، وتغير شعارات ورايات كثيرة.

ولهذا كان الحديث معه، في بعض الأحيان، أشبه بفتح نافذة على تاريخ حي.

وما كان يمنح روايته خصوصيتها أنه لم يقف دائمًا خارج الأحداث ليصفها؛ فقد كان هو نفسه واحدًا ممن أصابتهم نتائجها.

لم يكن اسمًا يعلّق على الجدار

كان الشيخ يحمل اسمًا ثقيلًا في التاريخ: محمد مهدي الخالصي.

الاسم نفسه الذي حمله جدّه، قائد الجهاد ضد الاحتلال البريطاني، فيما كان أبوه الإمام الشيخ محمد الخالصي عالمًا مجددًا عاش هو الآخر السجن والمنفى والصراع مع الاستعمار والاستبداد.

وكان يمكن لهذا التاريخ أن يتحول إلى إرثٍ عائلي يُحتفى به، وصورٍ تُعلق، وحكاياتٍ تُروى في المناسبات. لكنه كان عند الشيخ شيئًا آخر: مسؤولية.

فلم يكن يستعيد سيرة أبيه وجدّه ليستريح إلى أمجاد الماضي، وإنما ليستخرج منها موقفًا للحاضر. وكان يرى أن قيمة ذلك التاريخ تنتهي إذا لم يبقَ قادرًا على إنتاج موقف تجاه قضايا العصر.

من هنا ظلت مدرسة الإمام الخالصي في نظره مشروعًا ينبغي أن يستمر، لا أثرًا تاريخيًا ينبغي المحافظة عليه فقط؛ مدرسةً للعلم والوحدة والاستقلال والكلمة الحرة، وموقفًا من الاحتلال والاستبداد والفتنة.

ولعل هذا هو الفارق بين من يرث الاسم ومن يحمل أمانته.

الرجل وراء المواقف

وراء كل ذلك كانت هناك شخصية يعرفها من جالس الشيخ عن قرب.

صلابةٌ في الموقف لا تمنع البساطة في التعامل، وذاكرة رجلٍ أثقلتها العقود لكنها بقيت قادرة على استدعاء أسماء ووقائع مضى على بعضها عشرات السنين.

كان قد رأى الكثير؛ وربما لهذا لم تكن التحولات السياسية السريعة تبهره بسهولة.

حكومات جاءت وذهبت، ورؤساء صعدوا ثم أصبحوا جزءًا من التاريخ، وتحالفات تغيرت، وخصومات انقلبت إلى صداقات، وصداقات انتهت إلى خصومات.

وسط كل ذلك ظل ثمة سؤال يعود في حديثه وموقفه بأشكال مختلفة:

أين مصلحة الإسلام والعراق والأمة؟

ولذلك كان يستطيع أن يؤيد موقفًا لجهة ثم يخالفها في موقف آخر؛ لأن التأييد عنده لا ينبغي أن يتحول إلى تبعية، والخلاف لا ينبغي أن يلغي القدرة على رؤية الصواب عند المختلف معه.

وهذه واحدة من السمات التي تحتاج إلى أن تُقرأ في زمنٍ أصبح فيه كثير من المواقف السياسية ولاءاتٍ مطلقة، لا اجتهادات قابلة للاتفاق والاختلاف.

وما الذي يغيب حين يغيب الشاهد؟

في الثاني والعشرين من تشرين الثاني 2025م رحل المرجع الديني الشيخ محمد مهدي الخالصي، بعد رحلة امتدت قرابة تسعة عقود.

لكن السؤال بعد عام من رحيله ليس فقط: ماذا ترك الشيخ؟

ثمة سؤال آخر ربما يكون أكثر إلحاحًا: ما الذي فقدناه برحيله؟

فحين يرحل رجلٌ عاش كل تلك العقود، لا نفقد شخصًا فحسب. نفقد ذاكرةً كانت تختزن أشياء لم تصل كلها إلى الكتب، وشاهدًا يصل بين أجيال لم يعد بعضها موجودًا، وصوتًا عرف رجالًا وأحداثًا لم نعرفها إلا من الوثائق والصور.

ولهذا فإن الوفاء له لا ينبغي أن يقتصر على مجالس الذكرى والدعاء، على أهميتهما، وإنما يبدأ من جمع ما بقي من شهاداته، وتحقيق آثاره، وتوثيق مجالسه وذكرياته ومواقفه، وحفظ ما لم يُنشر من تراثه.

فما كان يحمله الشيخ محمد مهدي الخالصي لم يكن ذاكرة رجل واحد، بل جزءًا من ذاكرة العراق والحركة الإسلامية في قرن كامل من التحولات.

بعد عام على الرحيل، تصبح صورة الشيخ أكثر هدوءًا في الذاكرة، لكن دلالة غيابه تصبح أكبر.

لقد رحل الرجل الذي كان التاريخ، حين يتحدث، يجلس معنا.

وبقيت شهادته في ما قال، وفي ما كتب، وفي المواقف التي دفع ثمن بعضها من جسده وحريته وراحته، وفي مدرسةٍ كان يؤمن بأن قيمتها لا تكون بما ورثته من تاريخ فحسب، وإنما بما تستطيع أن تقوله وتفعله في حاضر الأمة.

رحم الله المرجع الديني الشيخ محمد مهدي الخالصي، وأعلى الله مقامه، وجزاه عن الإسلام والعراق والأمة خير الجزاء، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقًا.